جاسم فريح دايخ الترابي - جامعة واسط - العراق

إشكالية فهم النّص المُحتمل للتأويل في نهج البلاغة دراسة هرمنيوطيقية

ملخص

للبحث في قوانين الفهم أهمية خاصة؛ وهي تتيح لنا أدراك كيف تجري عملية فهم النص وحدودها، وكيف يتم مجال السير عبر قواعد الفهم، وهل يمكن الاستغناء عنها أم لا؟ كذلك فهي تكشف لنا عن طبيعة العلاقة بين الفهم والنص، ومن ثم تحديد الشروط الكفيلة بتحقيق التطابق بينهما.

كلام الإمام علي بن أبي طالب (رض) في نهج البلاغة بؤرة غير منفتحة، وتحتاج إلى قوانين تفتح شفراته، وتثبج مساماته، فما من نص إلا ويستهدف نوعاً محدداً من المتلقين، وهو عند استهدافه لجماعة من المخاطبين يوظف جملة من دلالات السياق اللغوي المتعارف عليها، بحيث يفهمها القارئ والمتلقي المستهدف، وبذلك لا يكون معنياً بذكر كل شيء يريد قوله، فقد يضمر أشياءً لا تحتاج إلى الذكر الصريح باعتبارها معلومة ومفهومة لدى المتلقي. او انه يضمر أشياءً تعد حاضرة سلفاً لدى ثقافة المتلقي، لاسيما تلك المتعلقة بقيمه وظروفه الاجتماعية. فهو بمثابة القارئ الأصلي حسب التعبير الأدبي لكونه المعني بالفهم. ويعد هذا التبليغ والتواصل عقلائياً، فمتلقي الخطاب يفهم هذا التبليغ وإن لم يُصرَّح به لغوياً.

تحاول هذه الدراسة بالاستعانة بالقواعد الهرمنيوطيقية الكشف عن مخابئ النص العلوي وتجلياته المضمرة، مستعيناً بأقوال الشّراح لكلامه، والأطر المهيمنة في قراءة النص.

Abstract

The Problem of Understanding the Possible Text of the Interpretation in the Approach of Balagha A Hermeneutic Study

To examine the laws of understanding is of particular importance; it allows us to understand how the text is understood and its limits, and how is the field of walking through the rules of understanding, and can it be dispensed with or not? It also reveals to us the nature of the relationship

between understanding and text, and then determine the conditions to achieve the match between them.

The words of Imam Ali bin AbiTalib (Rad) in the approach of Balagha non-open focus, and need to open the codes and codes, and pores, there is no text but targeted a specific type of recipients, which is when targeting a group of speakers employs a set of meanings of the language context, So as to be understood by the reader and the target recipient, and thus not be interested in mentioning everything he wants to say, it may contain things that do not need to be mentioned explicitly as information and understood by the recipient. Or it imposes things that are already present in the culture of the recipient, especially those relating to its values and social conditions. It is the original reader according to the literary expression because it is about understanding. This communication and communication is rational, and the recipient of the letter understands this reporting, although not verbalized.

This study attempts to use the Hermeneutical rules to uncover the upper text caches and its implicit manifestations, using the words of the narrator and the dominant.

توطئة

للبحث في قوانين الفهم أهمية خاصة؛ وهي تتيح لنا أدراك كيف تجري عملية فهم النص وحدودها، وكيف يتم مجال السير عبر قواعد الفهم، وهل يمكن الاستغناء عنها أم لا؟ كذلك فهي تكشف لنا عن طبيعة العلاقة بين الفهم والنص، ومن ثم تحديد الشروط الكفيلة بتحقيق التطابق بينهما.

كلام الإمام علي بن أبي طالب (رض) في نهج البلاغة بؤرة غير منفتحة، وتحتاج إلى قوانين تفتح شفراته، وتثبج مساماته، فما من نص إلا ويستهدف نوعاً محدداً من المتلقين، وهو عند استهدافه لجماعة من المخاطبين يوظف جملة من دلالات السياق اللغوي المتعارف عليها، بحيث يفهمها القارئ والمتلقي المستهدف، وبذلك لا يكون معنياً بذكر كل شيء يريد قوله، فقد يضمر أشياءً لا تحتاج إلى الذكر الصريح باعتبارها معلومة ومفهومة لدى المتلقي. أو انه يضمر أشياءً تعد حاضرة سلفاً لدى ثقافة المتلقي، لاسيما تلك المتعلقة بقيمه وظروفه الاجتماعية. فهو بمثابة القارئ الأصلي حسب التعبير الأدبي لكونه المعني بالفهم. ويعد هذا التبليغ والتواصل عقلائياً، فمتلقي الخطاب يفهم هذا التبليغ وإن لم يُصرَّح به لغوياً.

تحاول هذه الدراسة بالاستعانة بالقواعد الهرمنيوطيقية الكشف عن مخابئ النص العلوي وتجلياته المضمرة، مستعيناً بأقوال الشّراح لكلامه، والأطر المهيمنة في قراءة النص.

مدخل تمهيدي (في مفهوم الهرمنيوطيقيا)

إنَّ الأصل المعرفي الذي أسهم في بزوغ القراءات الحداثية للنص هو المُشكل الدلالي الذي طرحته الكُتب المقدسة على مستوى التّلقي ، فتعدد نسخ الكتب المقدسة وتضارب الدلالة والمعنى في هذا النسخ، نتج عنه نشأة علم نقد الكتاب المقدس (الهرمنيوطيقا)(01).

وقد تطور مفهوم (الهرمنيوطيقا) في العصر الحديث فانتقل من البحث في الإلهيات إلى مجالات أكثر ، لتمثل العلوم الإنسانيّة كالتاريخ وعلم الإناسة والنّقد الأدبي(02).

واتّسعت مفاهيم الهرمنيوطيقا بمجيء (شليرماخر) إذ أضاف لها حمولةً معرفيةً نقلها من نطاق اللاهوت وتفسير النّص الديني، إلى تفسير كل النّصوص، وقدّم فهماً في قراءة النّصوص، وتقوم تأويليّة (شلير ماخر) على أساس: أنَّ النصّ عبارة عن وسيط لغوي ينقل فكر المؤلف إلى القارئ، ومن ثم فهو يشير في جانبه اللغوي إلى اللغة بكاملها، ويشير في جانبه النفسي إلى الفكر الذاتي لمبدعه. والعلاقة بين الجانبين – فيما يرى شلير ماخر – علاقة جدلية. كلّما تقدّم النص في الزمن صار غامضاً بالنسبة لنا، وصرنا – من ثم – أقرب إلى سوء الفهم لا الفهم. وعلى ذلك لا بدَّ من قيام (علم) أو (فن) يعصمنا سوء الفن، ويجعلنا أقرب للفهم (03).

فعلى يد (شليرماخر) تخلت الهرمنيوطيقا عن مهمتها الأولية المتمثلة في متابعة المعنى لتصب جل اهتمامها على وضع القوانين و المعايير التي تضمن الفهم المناسب للنصوص، أيا كانت هذه النصوص في تحققها الملموس(04).

يضع (شلير ماخر) ضابطاً لفهم النص يعتمد على مرتكزين هما المرتكز اللغوي والنّفسي، يحتاج المفسّر للنفاذ إلى معنى النّص إلى موهبتين: الموهبة اللغوية، والقدرة على النفاذ إلى الطبيعة البشرية، وهل يوجد ثمّة قواعد لكيفيّة تحقيق ذلك؟ يمكن الإجابة على ذلك بأنَّ لكل نص جانبين: جانب موضوعي يشير إلى اللغة، وهو المشترك الذي يجعل عملية الفهم ممكنة، وجانب ذاتي يشير إلى فكر المؤلّف، ويتجلّى في استخدامه الخاصّ للّغة. وهذان الجانبان يشيران إلى تجربة المؤلف التي يسعى القارئ إلى إعادة بنائها، بغية الملّف أو فهم تجربته(05).

فالأسس التّي وضعها (شليرماخر) في عملية الفهم فتحت الباب أمام نظريات أكثر شمولية على يد الفيلسوف (يلهلم دلثاي). إذ عرفت الهرمنيوطيقا مع هذا الأخير بعداً جديداً، فهو يرى أنَّ الفهم (Understanding) في العلوم الإنسانية يناظر التفسير (Explanation) في

العلوم الطبيعية، فإذا كان التَّفسير يهتم بربط أحداث ملاحظة بعضها بالبعض الآخر وفقا لقوانين الطبيعة، والتي لا تخبرنا عن الطبيعة الداخلية للأشياء، ولا عن العمليات التي تقوم بدراستها، فإن الفهم يحاول أنْ ينفذ إلى المعاني الموجودة داخل الأشياء، أي المعاني التي تمكننا من معرفة الحالات الباطنية الخاصة بنا، بمعنى أنَّ الفهم يرتكز على ما نسميه بالرؤية الداخلية للطبيعة البشرية التي نمتلكها جميعا(06).

ومن هنا فالتأويل الصحيح عند (دلثاي) يمكن أن يستنبط من طبيعة الفهم، حيث يقول: "يهدف التأويل إلى عملية فهم التعبيرات و الإشارات و الرموز التي تمثل الأساس الذي تبنى عليه معرفتنا بذاتنا و معرفتنا بالآخرين، وينطلق هذا الفهم عندما تستيقظ التمثلات العقلية عبر تدفق الأحداث النفسية لما يحدث بداخلنا"(07).

إذ بدأ ديلثي ممّا انتهى إليه شلير ماخر من البحث عن تفسير وفهم صحيحين في مجال العلوم الإنسانية، بينما بدأ جادامر من معضلة سوء الفهم المبدئي التي حاول شليرماخر – في تأويليّته – أن يتجنبها، وبهذا يعدُّ شلير ماخر – أباً للهرمنيوطيقة الحديثة، وللمفكرين الذين جاءوا بعده، سواء بدأوا من موضع الاتفاق أم من موضع الاختلاف معه(08).

ويتلخص الهرمنيوطيقا في أنَّ لفهم النّص عن طريق التأويل والاجتهاد، في سبيل العثور على مغزاه والبلوغ إلى قصواه، ضوابط وأصولاً ينبغي مراعاتها، ليكون الفهم صحيحاً ومقبولاً إلى حدٍّ ما (09).

بعد هذه الفهم نتوقف عند سؤال مهم هل يمكن للرؤية الهرمنيوطيقية حل مشكلات النصوص المحتملة للتأويل، ولا سيما النصوص المأثورة عن الإمام (رض) في نهج البلاغة ؟ للإجابة عن هذا السؤال المحوري ينبغي الإشارة إلى أنَّ الثنائيات المطروحة في الهرمنيوطيقا، ثنائية الفهم والتفسير ، فهل يعني ذلك أنّه لا بدَّ من فهم معنى النّص بصورة صحيحة، أو بالإمكان تفسيره بكل حرية وكيفما اتفق؟ وكيف نتأكد أنَّ فهمنا للنص هو ذلك الذي يقصده المتكلم وصاحب النّص، فأنَّ فهم نوايا المؤلف أمر لا مفرّ منه، ولكنني لا أقصر الأمر على فهم نوايا المؤلف، فلا شك في أنَّ الهرمنيوطيقا لو لم تستوعب أشياء أخرى فإنها تستوعب نية المؤلف، وبالطبع فإنها لا تنحصر بهذا الأمر بل تستوعب أموراً أخرى.

إنَّ انفتاح النص على تفاسير متعددة لا يعني الفوضى التفسيرية التي يريد البعض إشاعتها في أجوائنا الثقافية، هؤلاء يتصورون أنَّ من يقول بوجود قراءات متعددة للنص، فإنه يؤيد الفوضى الفكرية. والحال أنَّ القضية ليست بهذا المعنى إطلاقاً، فإنَّ انفتاح النص

على تفاسير متعددة يقتضي أن تكون هذه التفاسير تفسيراً بالمعنى المقبول للكلمة، أي يجب أن تتبع الأصول والقواعد المقررة في عملية التفسير.

وعليه فإنَّ انفتاح النص على قراءات متعددة لا يستلزم بالضرورة الفوضى والهرج والمرج، إلا إذا لم يهتم المفسر برعاية ضوابط التفسير، ومن جهة أخرى فإن الافتصار على قراءة واحدة يتقاطع بدوره مع تراثنا الديني والفكري أيضاً، ومن هذا الموقع فإن انفتاح النص من جهة على أكثر من قراءة لا يستلزم الفوضى المفهومية من جهة أخرى. وفي الحقيقة ينبغي علينا أن نتحرك في عملية التفسير مع رعاية الأصول والضوابط الهرمنيوطيقية. فعندما ندخل دائرة التفسير فسوف نرى وجود تفاسير مختلفة، وفي ذات الوقت فإنَّها تمثل بأجمعها تفسيراً للنص.

ويمكن عرض النصوص المحتملة للتأويل عند الإمام علي (رض) ضمن المحاور الآتية

المحور الأول. النصوص المحتملة للتأويل في المرأة

تُعدُّ نصوص الإمام علي(رض) في المرأة من النصوص المكتنزة تأويلاً، وتحتاج قراءة ثقافية حفرية لتفجير مسامات النص المخفية، ومن الأسئلة الأكثر تعلقاً في الذهن، ما سرُّ موقف الإمام علي (عليه السلام) اتجاه المرأة ؟ إذ إيحاءات النصوص تكشف في إضفاء صورة معكوسة عما تعارف عليه في أدبيات القرآن والسيرة النبوية، يأتي الانطباع الأولي عن هذا الموقف ليربطه بالظرفيّة التاريخيّة التي ولّدت التفكير عند الإمام علي (رض)، ولاسيما خروج السيدة عائشة التي سببت بيئة نفسية مضادة للمرأة، وهو تصور يتوقعه أي قارئ لنص الإمام علي (عليه السلام) وهو تحكّم بادِ؛ فالذي يعرف الإطار المعرفي للإمام (رض) لا يقبل بهذا التأويل الساذج، فنفس علي (رض) أعلى وأسمى بأنَّ تتخذ موقفاً إزاء حيثية لا يؤبه به، ولاسيما إذا عرفنا موقف الإمام من إكرام أم المؤمنين عائشة (رض) بعد انتهاء معركة الجمل، وهو أجل من يجعل من حيثية نفسية حكماً عاماً يشمل العام من النساء، كذلك سياق الحال لا يساعد على كون المقصود من العقرب عائشة، وذلك؛ لأنَّ العبارة أردفت بقوله (حلوة اللسعة) إذن والكلام هذا يمكننا القول إنَّ رمي الكلام جزافاً غير ناهض، ويحتاج إلى قراءة متأنية تكشف مكنوناته وتفصح عن نسيجه، وتعرب عن دواخله، ومن تلك النصوص المحتملة للتأويل :

النص الأول. (اَلْمَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوَةُ اَللَّسْبَةِ)(10)

ويمكن فهم هذا النص على وفق رؤى تأويلية وفقاً للمستويات الآتية :

المستوى الأول

اللام هنا قد تكون للعهد بمعنى أنَّ هناك امرأة معهودة يتحدث عنها الإمام، ومن ثم لا يعمم هذا الكلام على كل امرأة وقد تكون اللام للجنس والكلام وإن كان يشمل كل امرأة إلا أنَّه ممكن تخصيص هذا العموم بالقول إن بعض النساء خارجة عن هذا الكلام بدليل خاص هذا كله على فرض أن في كلامه ذم للمرأة وإلا يمكن القول بأنَّ الكلام ليس فيه ذم للمرأة فبعد إزالة أثار إيذاء العقرب حلوة اللسبة أي اللدغة أو حلوة اللبسة أي المعاشرة لا يبقى مكان للذم بهذا التصوير.

المستوى الثاني

إنَّ الحكم الصادر في شأن امرأة بوصفها (عقربة) هو بلحاظ امرأة كانت لها موقفاً رياديّاً في جلب المصائب ابتداءً بالوقائع التي حدثت للرسول الأعظم (صلى الله عليه واله) من إيذاء كما نصت عليه سورة التحريم، ومحاربة أمير المؤمنين على ... الجمل، وهو معنى بعيدٌ.

وان ذهب (دلثاي) إلى أنَّ النص تعبير عن تجربة الحياة كما عاشها المؤلف وليس عن تجربة الحياة الموضوعية. فيردُّ على هذا المرتكز من جهتين :

الجهة الأولى

إنَّ كثيراً من النصوص، هي محصّنة عن أن تؤثر فيها تجربة الحياة.

الجهة الثانية

قد يريد لها المؤلف أن تكون تعبيراً عن مناقض أو مضاد أو مغاير تجربة حياته.

المستوى الثالث

وصف الإمام علي (عليه السلام) بلحاظ العلاقة القائمة بين الرجل والمرأة، فهي عقربة إذا نظرت إليها، إذ يؤول أمرك أنك تبتلى بالعقارب في القبر؛ جزاءً وفاقاً لفعلك المنافي للشرع، ومال إلى هذا الرأي السيد هادي المدرسي في محاضراته(11).

المستوى الرابع

ولعل الأقرب إلى ما يرمي إليه أمير المؤمنين (رض) من كلمته هذه، هو أنَّ المرأة كثيرا ما تؤذي الرجل عن عمد أو من غير عمد، ولكنها وبملاحظة وضعها العاطفي والأنثوي المثير له تجعل الرجل ليس فقط لا يجد الم لسبتها وإنما هو يلتذ بها أيضاً.

ومن لطائف هذا المعنى ما أشار إليه ميثم البحراني بقوله : "اللبسة : لسعتها. واستعار المرأة لفظ العقرب بالوصف المذكور باعتبار أنَّ من شأنها الأذى لكن أذاها مشوب بما فيها من اللذة بها فلا يحسُّ به وهو كأذى الجرب المشوب بلذته في زيادة حكته"(12).

المستوى الخامس

يقول الشَّيخ محمد جواد مغنية مفسّراً هذه الحكمة بالقول: "وشبّهها الإمام (عليه السّلام) بالعقرب؛ لأنّها تسرع إلى الغضب على الرّجل، وتجحد معروفه لأمر تافه، وقد تؤذيه بكلمة موجعة وحركة نابية بلا سبب موجب ومعقول، فأوصاه الإمام (عليه السلام) بأنَّ يصبر عليها، ويتحملها على علّاتها؛ لأنَّها مهما تكن فهي أخف وخير من العقرب التي لا يمكن معها العيش حالٍ)(13).

المستوى السادس

ذكرت الدراسات السايكولوجية أنَّ المرأة العقرب تحيط نفسها بإطار من الحب والجاذبية والرومانسية بحيث لا يستطيع الرجل الإفلات من براثنها مطلقاً، وقد تبدو ظاهرياً باردة ولكنها داخلياً تشتعل ناراً خاصة لو اكتشفت أن رجلها ينجذب لامرأة أخرى.. وهى تتمتع بقوام رشيق وبشرة ناعمة وشفاه جميلة ومعبرة وأيضاً جاذبية متدفقة تجذب إليها الجنس الآخر بشراسة(14). وهذا التوجه الحديث بعيدٌ عن منطوق ما أراده الإمام علي (عليه السلام)، فكلماته لا تأخذ بعداً تأبيدياً، فالمرأة العقرب تسمية حديثة أوجدتها الدراسات المختصة بعلم نفس المرأة.

المستوى السابع

ذكر حبيبُ الله الخوئي تفسيراً لهذه العبارة فقال: "شبّهت المرأة بالعقرب حيث إنَّ تماسّ الرجل به خصوصاً في عنفون الشباب وطغيان القوى الشهوية معرض للآفات والبلايا الرّوحية والجسميّة، وتنقذ المرأة بجاذبيتها وفتانتها في وجود الرجل وتنفث على قلبه وروحه سمّ العشق، وأي سمَّ أضرّ منه وأوجع وآلم منه وأنقع، وإذا أحصيت وجدت المقتولين والمعتاهين بسمّ الحيات والعقارب معدودين في كل عصر ومصر، ولكن المقتولين روحاً ومعناً بسمِّ فتنة المرأة غير محصور جداً، وكفى لك بذلك ما ترنّم به الشعراء في كلِّ زمان ومن كل لسان في أشعارهم، والشعور شعور الأمة والشعب من التأثر بلقاء المرأة الحسناء حتى قتلا وجرحاً للقلب والكبد، فبلغ شكواهم عنان السماء وملأ صريخهم أرجاء الفضاء، وقد أشار (عليه السلام) أن هذا السمَّ الناقع حلو ولذيذ"(15).

والحق أنَّ مقاربة حبيب الله الخوئي لامست ضفاف المراد الذي يمكن الركون إليه، وإن لم يكن يقصده الإمام علي(رض) .

ولو عرضنا هذه المستويات السبع على المنهج الهرمنيوطيقي لوجدنا ثمة فهم ثابت غير متحرك، ولا يصحُّ تحديد فهم بوصفه الفهم النهائي لهذا النّص، كما أنَّه ليست الغاية من تفسير هذا النص القبض على مراد كلام الإمام (عليه السلام)، فنحن نواجه النص، وليس

الإمام، نعم هنالك معنى مرتكز في ذهن الإمام، ولعله متعدد، من ذلك إشاراته (عليه السلام) الذي يقتضي هذا الفهم، ومن ذلك قولهم إن كلامنا بطن، إذن النص كيان مستقل يتحاور مع المفسر، فينتج عن ذلك فهم للنص، ويمكن القول إنَّه ليس هنالك مناطٌ لفحص التفسير القيم من التفسير غير القيم. ومفاد هذا التوجه هو أن النص بمجرد تصديره وكتابته أصبح ملكاً للقارئ وليس للمؤلف، وإنَّ القارئ هو الذي يضفي عليه المعاني المناسبة وإن كانت تختلف عن مراد المؤلف بعيداً.

أقول لا يمكن الجزم بقراءة معينة لهذا النص، ولم يعدّ المقصود من قراءة النص عمق لذلك، فالمطلوب هو أن نجوب فضاء الكتابة لا أن نخترقه والكتابة تضع المعنى باستمرار، ولكن قصدها من ذلك هو تبخيره، وإن رفض المعنى النهائي يُعدُّ نشاطاً ثورياً؛ لأنّه رفض اللاهوت ولأقانيمه ورفض للعقل والعلم والقانون(16).

إنَّ النَّص أصبح إشارات ودوال حرة لا تقيّدها حدود المعاني المعجمية، وأصبح للنَّص فعالية قرائية إبداعية تعتمد على الطاقة التخيلية للإشارة في تلاقي بواعثها مع بواعث ذهن المتلقي، وأصبح القارئ المدرب هو صانع النّص، والقراءة تعدو عملاً إبداعياً كإنشاء النّص؛ لأنَّ النّص جنين يبحث عن أب يتبناه، وما ذلك الأب إلا القارئ المدرب(17).

النص الثاني. (غيرةُ المرأةِ كفرٌ وغيرةُ الرجلِ إيمانٌ)

ويثير هذا النص تساؤلاً مفاده أنَّ الإمام علي (عليه السلام) يحارب صفة غريزية عند المرأة، وهو تصور مبني على عدم فهم مديات العبارة، ويمكن فهم هذا النص على وفق المستويات الآتية

المستوى الأول

ذكر يحيى بن حمزة الحسيني (ت749هـ) أنَّ "المراد أنَّها تنكر أن يكون لها مشاركة في زوجها، وإنَّما كانت كفراً؛ لأنَّ فيها إنكار ما أحلَّ الله لكل حرٍ أربع حرائر، وغيرة الرجل إيمان، المراد به أنَّه ينكر أنْ يكون له شريك في امرأته، وإنَّما كانت من الإيمانِ؛ لأنَّ الله تعالى حرّم ذلك، وحرّم النظر إليها والاستمتاع بها"(18)، وهو معنى للفهم الأولي للنص.

المستوى الثاني

من المتسالم أنَّ غيرة المرأة أمرٌ غريزي فطري، ومن هذا المنطلق وضع العلامة محمد جواد مغنية ضابطاً لطيفاً في توجيه هذا المشكل الدلالي بقوله: "المراد بالكفر – هنا– مجرد في مقابل الإيمان الذي يدعو إلى الطّاعة ... المرأة تغار من ضرّتها وشريكتها في الزوج بحكم الغريزة والفطرة فإن هي صبرت وعاتبت بالحسنى بل منّت بفضلها على الزوج دون أن تغضب الله في شيء فلا بأس عليها ولا أثم في غيرتها وحرقتها، بل هي أمور مأجورة مشكورة

عند الله وعند الناس، وإن قامت ولم تقعد وتعدّت حدود الله فهي مجرمة آثمة. أمَّا غيرة الرجال على المرأة فهي من الإيمان والنهي عن المنكر أي التهتك والفجور"(19).

المستوى الثالث

هذه العبارة اقتطعها الشريف الرضي من وصية الإمام علي (عليه السلام) إلى ولده الحسن (عليه السلام)، وإذا أرجعناها إلى مكانها الأصلي لكان لها معنًى أخر غير المعنى الذي ذهب إليه شرّاح نهج البلاغة، فمكان هذه العبارة من الخطبة هو "واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن فإنَّ شدة الحجاب أبقى عليهن، وليس خروجهنَّ بأشدّ من إدخالك من لا يُوثق به عليهن، وإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فأفعل فإن غيرة المرأة كفرٌ وغيرة الرجل إيمان"(20)، فمعناها وهي في داخل النّص الأصلي يختلف عن معناها وهي مستقلةٌ، ولقد حرَصَ الشريف الرّضيُّ أن يهتم بالجانب الأدبي، وكان يريد بهذه الطريقة أن يوصل كلمات أمير المؤمنين إلى المحافل الأدبية، وربّما كانت بعض هذه الكلمات القصار من حكم ومواعظ أمير المؤمنين (عليه السلام) تدور على ألسنة الناس فجمعها السيد الرضي بكلمات مستقلة بينما هي أجزاء من خطب لم يكن من السّهل حفظها بأجمعها.

حذف النص من سياقه يؤدي إلى تحميل النص المقتطع غير ما أريد في أصله الأولي ومن ذلك حديث "خلق الله على صورته"(21) الوارد في كتب الفريقين ومن ذلك الحديث الوارد في كتب الإمامية، "قلت للرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله إن الناس يروون أنَّ رسول الله صلى الله عليه واله وسلم قال: إنَّ الله خلق آدم على صورته، فقال: قاتلهم الله، لقد حذفوا أول الحديث، إن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم مر برجلين يتسابان، فسمع أحدهما يقول لصاحبه: قبح الله وجهك ووجه من يشبهك، فقال صلى الله عليه واله وسلم: ياعبد الله لا تقل هذا لأخيك، فإن الله عز وجل خلق آدم على صورته"(22).

المستوى الرابع

المقصود من غيرة المرأة من ضرتها أي الزوجة الثانية لزوجها؛ لأنَّ الإسلام أجاز له تعدد الزّوجات، فإذا اندفعت الزوجة بغيرها من الضرة لتجاوز الحدود، فهو حرام شرعاً.

والتَّعبير عنها كفر أي كفر عملي وليس كفر اعتقادياً، كما عبّر تعالى عمن لا يؤدي الحج مع استطاعته بالكفر في قوله تعالى "وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ"(23).

أما غيرة الرَّجل فهي حرصه على طهارة وحماية عرضه، ولا شك أنَّه إيمان.

وإذا عددنا أنَّ أيّ نص هو نتيجة لتشكيلة معقدة من العوامل اللغوية والنفسية والثقافية والبيئية، فمن المنطقي أن يكون فهم هذا النص متشعبًا ومتشابكًا إلى حدود بعيدة.

ومن هذا الاعتبار يبدأ التشعب والافتراق في الدلالة لكل محتوى من عناصر النص. ولو أخذنا مثلا، حالة الغيرة بوصفها نصًا ثقافيًا يعبّر عن تجربة إنسانية يمرّ بها الفرد في الحياة. فكيف يمكن لنا أن نفهم هذا النص؟ هل ننطلق من الثيمة العامة لدلالة الغيرة الأساسية بأنَّه تعبير عن حالة معينة؟ أم نبحث عن دلالات أخرى مصاحبة أو مرتبطة بموقف أو بمعطى متصل بالنص نفسه؟ وهل يحق لنا أن نبحث في دلالات مضادة تمامًا لما هو متعارف عليه ثم نستقصي ما يثبت ذلك من داخل النص أو من خارجه؟

ويمكن القول إنَّ أهم ما نستخلصه من القراءات المتعددة لنص (الغيرة) أنَّ القراءة مفتوحة أبدا، ولا يمكن لها أن تنتهي، ومتعددة أبداً ولا يمكن للنص أن يقرأ قراءة أو قراءتين فقط وإنَّما هو يتغذى باستمرار ويتجدد بالقراءة، ففي كل قراءة إضافة له.

ثم إنَّ هذه القراءات لا تختلف إلا لتأتلف، وتتداخل وتتنوع لتتكامل وذلك ما يميَّز قراءة النص العلوي عن غيره من القراءات، فهي تبحث دائما في تعدد الدلالات المختلفة التي يحملها النص، لأنه لا يمكن أن يقدم المعنى هكذا جاهزا ونهائيا. فالنص لا يتحقق إلا بالقراءة وكلما كان النص كانت القراءة وكلما كانت القراءة كان النص.

يرفض (هيدغر) "كل أشكال التفسير النفسية والذاتية، التي تربط اللغة بذاتية الإنسان وبتجربته الداخلية الخاصة، ويرى فيها اللغة – محض تجل لحقيقة العالم بما هو كذلك"(24).

وما قاله (هيدغر) باطل من وجهين :

الأول. إنَّ اللغة تتكون من الحقيقة والمجاز، وما أكثر المجاز، ومن الكناية والاستعارة والتشبيه، ومن المبالغة والإغراق وغيرها، وما أكثر ذلك كله، وهل يعقل أن يقال إنَّ الكناية والتشبيه والمبالغة... وهي محض تجل لحقيقة العالم بما هو كذلك ؟

الثاني. إنَّ اللغة كثيراً ما يراد لها أن تكشف عالماً آخر هو غير عالم الحقيقة، مثل عالم المتخيلات وعالم المتوهمات والأسطوريات.

المحور الثاني : النصوص المتعلقة بخفاء الاسم

من البؤر المفتتحة لقراءات متعددة في نهج البلاغة خفاء الاسم، وهو السمات المميزة، وهو مثار للتفكير ومحطٌّ للتأويل، ومن تلك النصوص، النص الآتي: "لِلَّهِ بِلَاد فُلَانٍ فَقَدْ قَوَّمَ الْأَوَدَ وَدَاوَى الْعَمَدَ وَأَقَامَ السُّنَّةَ وَخَلَّفَ الْفِتْنَةَ. ذَهَبَ نَقِيَّ الثَّوْبِ قَلِيلَ الْعَيْبِ أَصَابَ خَيْرَهَا وَسَبَقَ شَرَّهَا أَدَّى إِلَى اللَّهِ طَاعَتَهُ وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ لَا يَهْتَدِي فِيهَا الضَّالُّ وَلَا يَسْتَيْقِنُ الْمُهْتَدِي"(25).

يُعدُّ هذا النص من النصوص المثيرة التي كانت مثار خلاف واضح في ماهية المقصود بهذا الخطاب، وينبغي قبل تأويل هذا النص الإشارة إلى مقدمتين مهمتين :

المقدمة الأولى

إنَّ الغرض من توضيح المراد من هذا النص هو الحقيقة.

المقدمة الثانية

إنَّ الشيعة الذين يعتقدون بعصمة علي (عليه السلام)، ولا يمكن أن ينسبوا إليه ما ينافيها، كالخداع للناس وغير ذلك مما سؤلا يرضاه الله تعالى.

ويمكن عرض تأويل هذا النص ضمن المستويات الآتية :

المستوى الأول

زعمت الجارودية من الزيدية: أن مراده (عليه السلام) عثمان بن عفان، وقالوا: إنه مدح يراد به الذم والتَّهكم(26). وهو بعيدٌ من جهتين :

الجهة الأولى. هو مجرد تحكّم لا دليل عليه سنداً ومتناً.

الجهة الثانية. عدم انطباق ميزات النص على عثمان بن عفان.

ناهيك عدم الإفصاح عن معنى المدح الذي يُراد به الذم، وان كان ذيل القول يساعد عليه. وهو مجرد استحسان وتكهن.

المستوى الثاني

ذهب قطب الدين الراوندي إلى أنّه (عليه السلام) مدحَ به بعض أصحابه بحسن السيرة. وانّ الفتنة هي التي وقعت بعد رسول الله من الاختيار والإثرة.

وأصبح الخلاف في من يمثل هذه الصفات، إذ ذهب قومٌ أنَّ المقصود بهذه الصفات هو عمار بن ياسر، الذي كان والياً على الكوفة مدة من الزمن.. وكان علي (عليه السلام) يرى فيه أنَّه أهل لهذه الصفات، ولما هو أعظم منها.

وذهب آخرون إلى أنَّ سلمان الفارسي (رحمه الله)، فإنه مات في حياة علي (عليه السلام)، وهو الذي صلى عليه وجهزه ودفنه، فلعله رثاه بهذه الكلمات، ثم استعيرت لتمنح لغير سلمان.

أقول سياق الحال لا يساعد على إجراء هذا النص على الرجلين، ولاسيما إذا قرأنا (رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ لَا يَهْتَدِي فِيهَا الضَّالُّ وَلَا يَسْتَيْقِنُ الْمُهْتَدِي).

المستوى الثالث

ذكر ابن أبي الحديد المعتزلي(655ه) أنَّ المقصود هو عمر بن الخطاب، وحجته في ذلك أنَّ السيد فخار بن معد الموسوي الأودي الشاعر حدثه، أنه وجد النسخة التي بخط الرضي.. وتحت فلان: عمر(27). وهو مردود بوجوه :

الوجه الأول

لا شيء يثبت أن الرضي (رحمه الله) هو الذي كتب كلمة (عمر)، فلعل صاحب النسخة ومالكها هو الذي كتب كلمة (عمر) تحت قوله: فلان.. وذلك اجتهاداً منه.

الوجه الثاني

إنَّ المعروف من رأي أمير المؤمنين (عليه السلام) في عمر بن الخطاب يخالف هذا الكلام. ولاسيما خطبته الشقشقية التي أثبتت موقفه الرسمي من عمر بن الخطاب.

وما ذكره الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في الخطبة الشقشقية عن خلافة عمر بن الخطاب بصريح العبارة: "فيا عجباً بينما هو يستقيلها في حياته - يريد أبا بكر- إذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشدّ ما تشطّر ضرعيها فيسرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها ويخشن مسّها ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة إن اشنق لها خرم وان أسلس لها تقحم"(28).

هذا النص الذي أمامنا يعّد بيّنه واضحة في بيان الشخص المقصود، بينما المدعى هناك مجرّد احتمال وادعاء ورد من خارج كلام الإمام (عليه السلام) وفي مقام التعارض تقدّم البيّنة على الادّعاء كما هو معلوم.

الوجه الثالث

رفض الإمام علي (عليه السلام) العمل بسيرة الشيخين كما هو معلوم في قضية الشورى التي وضعها الخليفة عمرن الخطاب (رض) قبل وفاته. وهو بهذا الموضوع أحوج للاعتراف، وهو دليلٌ يرد استهلال النص بـ(لِلَّهِ بِلَاد فُلَانٍ فَقَدْ قَوَّمَ الْأَوَدَ وَدَاوَى الْعَمَدَ وَأَقَامَ السُّنَّةَ) وهو إنه (عليه السلام) كان ولم يزل يعلن رأيه في الخلفاء، ويرفض الاعتراف بشرعيتهم، وهو القائل: (أرى تراثي نهباً)

المستوى الرابع

إنَّ الطبري قد روى هذه القضية عن المغيرة بن شعبة، وكان المغيرة هذا عدواً لعلي (عليه السلام)، ولم يكن يؤمن فيما ينقله، وينسبه إلى علي (عليه السلام) من الدس والتصرف.. وقد ذكر الطبري: أن علياً (عليه السلام) نقل هذا الكلام أو بعضه عن بنت أبي حثمة، وأنها لم تقل ذلك من عند نفسها، بل علمها بعض الناس أن تقول ذلك، فقالته.. وهذا تقريباً هو ما قاله ابن شبة أيضاً، فإنه ذكر أن علياً (عليه السلام) نقل ذلك عن نادبة

عمر، ثم قال: (والله، ما درت هذا، ولكنها قولته وصدقت الخ..). أي أنّها عُلِّمت أن تقول ذلك. وقد صدقها النّاس، أو بعضهم فيما قالته.. فكلمة (صدقت) مبنية للمفعول. أمّا قوله كما ينقله ابن شبة أصاب عمر خيرها وترك شرها، فيمكن أنْ يكونَ المقصود به المدح ويمكن أنْ يكون المقصود به أنَّه استفاد من الدنيا، وأصاب خيراتها، وتجنب الوقوع في مشكلاتها وشرورها، وقذف بالمصاعب والمصائب على من يأتي بعده، ليبتلي بها، ويصلى نارها دونه. ويدلُّ على ذلك أنَّه عقب كلمته هذه بقوله: "ولقد نظر له صاحبه، ورحل وتركهم في طرق متشعبة، لا يهتدي فيها الضال ولا يستيقن المهتدي".فإنه (عليه السلام) في كلامه هذا إنما يقف موقف الناقد لفعل عمر، لأنه استفاد من الدنيا، وترك الأمور بعده مبهمة، ولم يحل شيئاً من عقدها، بل زادها تعقيداً، وغموضاً(29).

وتأسيساً على ما تقدّم فأنَّ ادّعاء البعض أن المراد الحقيقي من هذا الفلان، هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب(رض)، مما أثار حفيظة البعض الآخر إلى حدِّ القول إنَّ هذا الكلام ليس للإمام علي (عليه السلام)، بل هو منسوب إليه أو مكذوب عليه.

أقول إنَّ التّطرف في إلغاء القيمة لقصد المؤلف بسب هذا المقتضي غير مبرر فلعلَّ هنالك ظروف خارجة عن نطاق النّص فقط، مستبعدين أي عامل خارجي يساعد على اكتمال عملية الفهم، ومع أنَّه لا ريب في تأثير العوامل الخارجية بالنص – وهي القرائن الحالية – في سلامة فهم النص أو فهم مراد المتكلم منه أو فهم مسبقاته وخلفياته على فرض صحة أو أهمية ذلك ولو أحياناً، وذلك مثل دراسة ظروف صدور النّص (إذا كان المتكلم أو الكاتب من البشر)، مثل هل أنَّ المتكلم كان في حالة تقية مثلاً أو لا، بل حتى في غير البشر، فمثلاً هل كان المشرّع السماوي في مقام التشريع، فلا يتمسك بإطلاق كلامه لنفي قيد أو شرط أو جزء محتمل(30).

الخاتمة

في نهاية المطاف يمكن القول إنَّ الإمام علي (رض) اعتمد تكتيكاً لغوياً في بعض كلامه، وهو بيئة خصبة لدراسة ما يحويه كلامه من دلالات كامنة، تحتاج فضل تأمل وتدقيق، كان هذا البحث مفتاحاً لدراسات أعمق، نعم كلام الإمام تام الدلالة يفهمه الناس على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الثقافية، فهو من السهل الممتنع، أي الخالي من التعقيد اللفظي والمعنوي وهو مع ذلك في الذروة من الإحكام بحيث يتعذر لغير المعصوم أن يأتي بمثله. ولكن مع ذلك فإنه يوجد في كلام المعصوم إشارات تحتاج إلى بيان، وفيه وجوه محتملة من المعنى لا يتسنى لكل الناس فهمها، وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق (رض) في

الحديث الذي رواه مؤمن الطاق، قال: "أنتم أفقه الناس ما عرفتم معاني كلامنا، إن كلامنا ينصرف على سبعين وجهاً"(31).

الهوامش

1. مدخل إلى الهرمنيوطيقا ، نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير، : 34.
2. المصدر نفسه: 24.
3. ينظر: التأويل في مختلف المذاهب والآراء ، محمد هادي معرفة : 159.
4. ينظر: من فلسفة التأويل إلى نظريات القراءة ، شرقي عبد الكريم : 24.
5. ينظر: إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، نصر حامد أبو زيد : 15-17.
6. ينظر: فلسفة الحياة (دلثاي انموذجاً)، محمود سيد أحمد : 61.
7. نظرية الهرمنيوطيقا من شليرماخر إلى بول ريكور، عبد الكريم درقاوي : 118.
8. ينظر: القراءة وآليات التأويل : 15-17.
9. ينظر: التأويل في مختلف المذاهب والآراء : 159.
10. نهج البلاغة : 290.
11. لمحات في الفكر الديني، هادي المدرسي : 222.
12. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 5/ 254.
13. في ظلال نهج البلاغة ، الشيخ محمد جواد مغنية : 4/ 252.
14. دراسات في علم النفس ، د. قيصر الجبلي : 178.
15. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة : حبيب الله الخوئي : 21/ 111.
16. ينظر: هسهسة اللغة ، رولان بارت : 82.
17. ينظر: الخطيئة والتفكير، عبد الله الغذامي : 49، والقراءة الجديدة ، عبد الرزاق هوماس: 46.
18. الديباج الوضي في الكشف عن كلام الوصي (شرح نهج البلاغة): 6/ 2816.
19. في ظلال نهج البلاغة ، محمد جواد مغنية : 6/ 181.
20. نهج البلاغة : 31.
21. صحيح البخاري : 3/ 125.
22. المصدر نفسه : 3: 125 .
23. سورة آل عمران : 97.
24. من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، شرقي عبد الكريم : 111.
25. نهج البلاغة : 430.
26. ينظر: شرح نهج البلاغة : 12/ 229.
27. ينظر المصدر نفسه : 12/ 28.
28. نهج البلاغة : 12/ 34.
29. تاريخ الملوك والأمم : 2/ 229.

30. ينظر: نقد الهرمنيوطيقا ، مرتضى الشيرازي : 118.
31. في ظلال نهج البلاغة ، محمد جواد مغنية : 3/ 91.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إشكاليات القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبو زيد، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان 2002م.
- تاريخ الطبري المسمى بتاريخ الملوك والأمم: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1433هـ.
- التأويل في مختلف المذاهب والآراء، الشيخ محمد هادي معرفة، دار ستارة – قم – إيران، 1423هـ.
- الخطيئة والتفكير ، عبد الله الغذامي، ط1، مطبعة النادي الثقافي، الرياض – السعودية، 2009م.
- الديباج الوضي في الكشف عن كلام الوصي (شرح نهج البلاغة)، لأبي الحسين يحيى بن حمزة بن علي الحسيني (ت 749هـ)، تحقيق: خالد بن قاسم بن محمّد المتوكل، ط1، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، صنعاء- اليمن، 1424هـ- 2003م.
- دراسات في علم النفس، د. قيصر الجبلي، ط1، الدار العربية للنشر – القاهرة – مصر، 2009م.
- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (ت655هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، 1425هـ- 2004م.
- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256هـ)، المطبعة السلفية – القاهرة – مصر، 1422هـ.
- فلسفة الحياة (دلثاي انموذجاً)، محمود سيد أحمد، مطبعة، الثقافة للجميع – القاهرة – مصر ، 2006م.
- في ظلال نهج البلاغة، الشيخ محمد جواد مغنية، مؤسسة المعارف – بيروت – لبنان، 1411هـ.
- القراءة الجديدة في ضوء ضوابط التفسير، عبد الرزاق هوماس، دار القلم، بيروت – لبنان، 2011م.
- القراءة وآليات التأويل، عبد الحكيم درقاوي، المؤسسة العربية للترجمة – بيروت – لبنان، 2006م.
- لمحات في الفكر الديني، هادي المدرسي، مطبعة أبرار، كربلاء- العراق، 2008م.
- من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، شرقي عبد الكريم، كلية الآداب – جامعة الرباط، 1999م.
- مدخل إلى الهرمنيوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير، د.عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، 2007م.
- نهج البلاغة، للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) جمعه الشريف الرضي (ت406هـ)، تحقيق: محمد عبده، دار عبق، دمشق – سوريا، 1989م.
- هسهسة اللغة، رولان بارت، ترجمة .د منذر عياشي، ط1، مركز الإنماء الحضاري، حلب – سوريا، 1991م .
- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: حبيب الله الخوئي، تحقيق: علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، 2008م.
- نقد الهرمنيوطيقا، مرتضى الشيرازي، دار العلوم، بيروت- لبنان، 2013م.